جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia & Islamic Studies
مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
Journal of College of Sharia & Islamic Studies
نصف سنوية – علمية محكمة
Academic Refereed - Semi - Annual
ISSN 5545-2305
المجلد ٣٢– العدد٢– خريف١٤٣٥هـ –١٤٣٦/٢٠١٤–٢٠١٥م
VOL. 32-No.2, 2014-2015A. 1435-1436H

النهضة الإسلامية بين جناحي العلم والعمل

تأليف
د.محمود سعيد حميدة عطية
أستاذ مساعد بجامعتي القاهرة وقطر

DOI No:10.12816/0009576

ملخص البحث:

النهضة الإسلامية بين جناحي العلم والعمل

لا غرو أن بذور الانفصال كانت منثورة في ظل الخلافات الإسلامية المتعاقبة، وذلك على الرغم من محاولات الاتصال والاتساق على مستوى الفرد بين أقواله وأفعاله وعلى مستوى الأمة بين النظر والتطبيق، وبدا أثر ذلك في تجليات إبداعية عكست الظاهرة، مثل كتاب: أدب الدنيا والدين للماوردي، واقتضاء العلم العمل للبغدادي، معيار العلم، ومعيار العمل للغزالي. وإذا أطلنا النظر في الفلسفة الإسلامية ومجالاتها المختلفة سنجد صورة هذا الانفصال قد تجلت في علم الكلام وفي التصوف والأخلاق، وفي الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر على النحو الذي عرضنا له.

وبناء عليه قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد تحدثت فيه عن الواقع والنهضة ثم تناولت في المبحث الأول جذور المشكلة من وجهة نظري. وفي الثاني عرضت لتجلياتها في بعض مجالات الفلسفة الإسلامية المختلفة كعلم الكلام والفلسفة والتصوف والفكر الإسلامي الحديث. وقد نحوت في المبحث الثالث إلى وضع عدد من الخطوات على طريق النهضة عساها تدفعنا إلى النهوض وفقا لقواعد العلم والعمل. فإقامة التوازن بينهما هو شغل الإنسانية كلها ومطمح سعادتها، فلا يكون حل بغير علم وعمل، فهما كجناحي طائر لا يعلو إلا بهما معا في اتزان وتناغم تام، وغير ذلك يقعد به عن مهمته ووظيفته.

Arabic Renaissance between the Wings of Knowledge and Action

No wonder the seeds of separation between Knowledge and Action have been planted throughout the Islamic history in spite of the attempts to reconcile and bridge the gap between them at the level of the individual—between his words and his actions—and at the level of the

whole nation—between theory and practice. This dichotomy was reflected in a number of innovative writings such as "The Art of Life and Religion" by Al-Mawardy, "Knowledge Requiring Action" by Al-Baghdady, and "The Measure of Knowledge" and "The Measure of Action" by Al-Ghazali. If we reflect on the Islamic philosophy and its different fields, we see that this dichotomy appears in the fields of didactics, Sophism, and ethics, in addition to the contemporary and modern Islamic thought in the way we have shown.

The current research is, therefore, divided into three parts preceded by an introduction discussing the reality and the renaissance. In the first part, I discuss the roots of the problem from my point of view, and in the second part I present its impact on some of the different fields of Islamic philosophy such as the field of dialectics, philosophy, sophism, and modern Islamic thought. In the third part, I put down some steps on the road to renaissance hoping that they will help us abide by the rules of knowledge and action. Establishing a balance between the two is the main preoccupation of humanity and is essential for its happiness; they are like the two wings of a bird which can only fly by the help of its two wings together in complete balance and harmony.

النهضة الإسلامية بين جناحي العلم والعمل[١]

مقدمة:

حاول البحث أن ينطلق من الواقع مستشرفاً المستقبل من خلال الغوص في الماضي بحثاً عن عوائق النهضة وبدايات التخلف الذي صارت أزمته مزمنة وتوالت عليها أنواع مختلفة وصور متعددة من التجارب والأدواء التي حاولت النهوض به على يد كثير من المصلحين والمفكرين، وبناء على ذلك حاولت أن أنظر إلى واقع مشكلتنا من خلال زاوية أخرى تتعلق بالفلسفة الإسلامية وتطبيقاتها في بعض مجالاتها المختلفة بحثاً عن خطوات تكون سبيلاً لنهضتنا المعاصرة.

وبناء عليه قسمت البحث إلى ثلاثة مباحث يسبقها تمهيد تحدثت فيه عن الواقع الراهن والنهضة المرجوة ثم تناولت في المبحث الأول جذور المشكلة من وجهة نظري. وفي المبحث الثاني عرضت لتجلياتها في بعض مجالات الفلسفة الإسلامية المختلفة كعلم الكلام والفلسفة والتصوف والفكر الإسلامي الحديث. ثم نحوت في المبحث الثالث إلى وضع عدد من الخطوات على طريق النهضة عساها أن تدفعنا إلى التغير والنهوض وفقاً لقواعد العلم والعمل ثم خاتمة ذكرت فيها النتائج التي توصل إليها البحث.

تمهيد: الواقع والنهضة:

إن الحديث عن النهضة والواقع متلازمان؛ فالواقع أن العالم العربي والإسلامي مستغرق في كبوة لم يُقدّر له في وقتنا الحالي أن ينهض منها، بل إن شئت فقل: في حالة

---

(١) ألقي هذا البحث بالمؤتمر الدولي السابع عشر بكلية دار العلوم "أسس النهضة واتجاهاتها في الفكر الإسلامي" الذي عقده قسم الفلسفة الإسلامية يومي ١٤، ١٥ أبريل ٢٠١٣م.

انحطاط وجمود وركود، ولا غرو في ذلك فقد سمَّى المفكر الإسلامي الهندي أبوالحسن الندوي (ت١٤٢٠هـ-١٩٩٩م) كتاباً له بعنوان: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"[(١)] أو لنقل حالة تأخر كما سبق أن تساءل أمير البيان العربي شكيب أرسلان(ت١٣٦٦هـ-١٩٤٦م) "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟" فهاتان شهادتان فكريتان تقضيان بتردي الأمة وتخلف واقعها المعيش، وذلك على الرغم من الاختلاف الواضح في التساؤل بين منظاري "الندوي" و"أرسلان" من حيث رأى الأول أن الانحطاط حالة داخلية للأمة، ولكن انعكاساتها على العالم جلية بالخسران المبين، وكان منظار الثاني أن التأخر حالة خارجية للأمة الإسلامية بمقارنتها بغيرها من الأمم المتقدمة، وتلك الشهادات المتنوعة التي حاولت الإجابة عن هذه التساؤلات[(٢)] (لماذا؟) – على الرغم من تأكيدها على تخلف المسلمين فهي في ذاتها دعوة للنهوض؛ بل يوصف أصحابها بأنهم مفكرون معاصرون تصب رؤاهم في إطار الفكر النهضوي، على الأقل من وجهة نظر أصحابها، لاسيما إذا كانت تلك الكتابات من نَفَسٍ مهموم بالواقع وملماته. وبناء على ذلك يطيب لي أن نقف بإيجاز على واقع الأمة المتردية أو مشكلاتها، ويمكن تلخيصها إيجاز– من وجهة نظري– في ثلاث مشكلات كبرى:

---

(١) وكتب منير شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، دار طه للنشر لندن، ط١/١٩٨٣م.

(٢) هناك عدد كبير من الشهادات الأخرى سواء أكانت تخص قطرا من الأقطار؛ مثل: كتاب حاضر المصريين أو سر تأخرهم: للأستاذ محمد عمر الذي كتبه في بدايات القرن الماضي عن المسألة المصرية، أو تعلقت بالأمة الإسلامية على وجه العموم؛ مثل: كتاب سر تأخر العرب والمسلمين: للشيخ محمد الغزالي، وقد درس د. حامد طاهر التخلف عند المسلمين باعتباره أحد المشكلات الكبرى في بحث له بعنوان : مشكلة التخلف الحضاري عند المسلمين.

١- **الجهل**[١] : على الرغم من دعوة الإسلام للعلم في أول ما نزل من قرآن: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١ :٥]!.وقد نزلت الآيات على محمد النبي الأمي الذي لم يكن يخفى على ملك الوحي أنه لا يقرأ ولا يكتب فما معنى الأمر حينذاك وما جدواه؟! وذاك ما تأكّد لجبريل-عليه السلام- من جواب محمد: ما أنا بقارئ، فمعنى القراءة هنا أن يرد كثرة الموجودات في العالم ويتتبعها باسم الذي خلق الجبال والأنهار والليل والنهار والزروع والأشجار...إلى بارئها الأول، ومن ضمن تلك المخلوقات وعلى رأسها الإنسان أكمل مخلوق وأجمله، وهنالك قراءة أخرى تتعلق بالكتاب المسطور "القرآن الكريم"، فالناظر في الطبيعة يؤمن بالربوبية، والناظر في كتاب الله يصل إلى الحقيقة ذاتها. ولعلنا نلحظ -كما هو حاصل اليوم – أغلب علماء الدين ليسوا قادرين على قراءة الواقع المنظور بحوادثه المتجددة لينزلوا عليه الأحكام، ولم يعد- في المقابل- أغلب علماء الطبيعة قادرين على قراءة الكتاب المسطور، وبناء عليه يعاني واقع المسلمين كثيراً من الفصام بين القراءتين(قراءة الكون المنظور وقراءة الكتاب

(١) يقول د.عبد العزيز بن عثمان التويجري- المدير العام لمنظمة العلوم والثقافة -إيسيسكو عن نسبة الأمية في العالم الإسلامي مقال له بعنوان "الأمية في العالم الإسلامي قضية أمن قومي": "ووفقاً لإحصائيات الإيسيسكو التي تتطابق وإحصائيات اليونسكو، فإن نسبة الأمية في دول العالم الإسلامي السبع والخمسين، تتراوح بين ٧٠ في المائة في وسط الذكور، و٨٥ في المائة في وسط الإناث. وترتفع هذه النسبة في البوادي والأرياف عنها في المدن والحواضر بما يزيد عن عشرة في المائة. وتسجل الإيسيسكو من خلال متابعتها لمؤشرات خريطة محو الأمية في الدول الأعضاء، أن الأمية في عدد من المناطق من العالم الإسلامي تزيد ولا تنقص"(مقال جريدة الحياة السعودية: نشر في ٢٠٠٨/٩/٦م، عدد:١٦٥٩١، ص١٠).

المسطور) القائم في مناهجنا التربوية ونظمنا التعليمية بين علوم الدين والعلوم الكونية. مما ترتب عليه جهل طرف بحقيقة الطرف الآخر، أو على الأقل إنكار أحدهما على الآخر.

٢- **الفقر**[١]: على الرغم من أن الذي يتأمل العالم الإسلامي يجد لديه كل شيء من ثروات طبيعية وإمكانات بشرية هائلة، بل إن المكان ذاته عبقري كما أورد جمال حمدان عن "شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان" ولا غرو أن تكون القوانين والخطط والدراسات والبحوث متحققة على المستوى النظري لا التطبيق العملي!!.

٣ – **الفرقة**: على الرغم من وجود وشائج قوية تجمع الأمة الإسلامية دون غيرها من الأمم فلها تاريخ واحد ولغة واحدة، ودين واحد، وقبلة واحدة، والدعوة إلى الاعتصام بحبل الله ما تزال قائمة فينا!!.

ويغلف تلك المشكلات الثلاث الاستبداد السياسي بصوره المختلفة تسانده القوى الأجنبية أو الغربية من وراء حجاب، الأمر الذي تبدو معه تلك المشكلات كأنها إحدى صوره؛ ولكن ما علاقة هذه المشكلات بموضوعنا عن النهضة بين العلم والعمل؟

ثمة علاقة وثيقة بينهما؛ تحدث عنها أبو حامد الغزالي في رسالة "أيها الولد" قائلاً: «العلم بغير عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون» [٢]، ومن ثم **فالجاهل** عمله بغير علم لا يكون، وذلك لما قد يترتب عليه من ضرر كبير، **والفقير** لو كان يعمل بإتقان ما

---

(١) كتب د.حسن محمد الرفاعي عن مشكلة الفقر في العالم الإسلامي المشكلات والحلول، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان ٢٠٠٦م. ود. رفعت العوضي: عالم إسلامي بلا فقر.

(٢) أيها الولد: تقديم وتحقيق وفهرسة: إبراهيم نجيب حبيب، مطبعة أوفيست، ص ٢٥.

بات فقيراً، **والوحيد** المنشق إن عمل وأتقن فمن أجل ذاته فحسب ولا يستطيع أن يعمل عملاً منظماً في فريق جماعي مؤسسي يحقق الوحدة والاستمرارية على نهج واحد، وثلاثة النفر(الجاهل والفقير والوحيد) يشتركون في أنهم يعملون لأنفسهم فحسب، وإن عملوا فلا إرادة لهم، فالأول مقلد، والثاني تابع، والثالث لا يبرح أثَرَته. وذلك الحال قد يفسر لنا كيف أن بعض صور النهضة قد يكون موجوداً بالفعل – في بلداننا العربية والإسلامية- باعتباره نتيجة لتلك الإمكانات الطبيعية الهائلة، فالعمران المدني قد تكون صوره موجودة بالفعل باعتباره العجلة التي تحرك كثيراً من الصناعات ولكن وفقاً للعمل العشوائي المشوب بالجهل والفقر وعدم التخطيط فإنه لا يعد انعاكساً لنهضة حقيقية.

وقد كافح المصلحون والمفكرون تلك المشكلات الثلاث فكتب الشيخ محمد عبده (ت١٩٠٥م) مقاوماً "الجهل" عن "الإسلام دين العلم والمدنية"، وكتب كذلك رفاعه الطهطاوي(ت١٨٧٣م) "المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين" وكتب قاسم أمين (ت١٩٠٨م) عن "تحرير المرأة"، ولكي يكافح الفرقة التي صنعها الاستعمار كتب محمد عبده أيضاً "رسالة التوحيد"، وكافحها محمد بن عبد الوهاب(ت١٧٩١م) بالدعوة إلى توحيد الله معتبراً أن في توحيد الله توحيداً للصف، كما دعا الشيخ جمال الدين الأفغاني (ت١٨٩٧م) إلى فكرة "الجامعة الإسلامية".

المبحث الأول

جذور الفصام أو الانفصال

ثمة خلل كبير قد أصاب العالم الإسلامي منذ أمد بعيد امتدت جذوره إلى القرن السادس الهجري، وهو الانفصال الجلي بين النظر والعمل أو بعبارة أخرى بين الأقوال والأفعال، وإن كان تلك الجذور ضاربة قبل القرن السادس بقليل على نحو غير بارز فإنها قد آتت أكلها في القرون التي تلته على نحو لم يسبق له مثيل، وهذا الخلل على مستوى الأمة قد تحقق بطرحها العمل واهتمامها بالنظر والجدل حوله دونما أن يترتب على ذلك عمل حقيقي تُبنى به حضارة، وهذا بلا شك أدى إلى التراجع الحضاري، وإن سلمنا بأن هنالك تراثاً نظرياً هائلاً حينئذ يدل على القدرات العقلية والتنظيرية فإنها لا تعدو أن تكون مجرد حضارة نظرية مثالية وأخلاقية لا رصيد لها في الواقع الخارجي، وإن كان ذلك الخلل قد ظهر على مستوى الأمة انفصالاً بين النظر والعمل فلم تبرح صورته أن تظهر على مستوى الفرد انفصاماً بين أقوال الإنسان وأفعاله بل امتد الانحراف إلى مفاهيمه وتصوراته، وذلك باعتبار أن الإنسان فرد يتكون من مجموع أفراده الأمة جمعاء.

إذن ثمة مشكلتان كبريان:

أحدهما على مستوى الفرد، تتمثل في الانفصال بين الأقوال والأفعال (لأنه إما مقلد أو تابع)، والأخرى على مستوى الأمة، وهي الانفصال بين النظر والعمل، وذلك ما يسمى بالفصام النكد – مستعيراً عبارة سيد قطب- وهو أيضاً ما يعبر عن واقع الأمة وحالها. ومن أجل تلك المشكلة لا غرو حينئذ أن يُوصف العرب والمسلمون بأنهم ظاهرة صوتية كما عنون عبد الله القصيمي في كتاب له، أي أمة أقوال لا أفعال.

لا يخفى علينا أن النهوض –كعمل منهجي منظم - لا يأتي دَفعة واحدة وإنما تسبقه إرهاصات، وإذا جاز لنا أن نشبه النهوض فأقرب صورة له هي صورة الإنسان الذي نام فترة طويلة من الجهل والمرض والتخلف والتراجع الحضاري، وهي ذاتها الحال التي شبهت فيها القوى الاستعمارية الخلافة العثمانية بالرجل المريض، فالمرض تبعه نوم عميق (فترة نقاهه) ثم إثر صيحة حماسية إسلامية استيقظ وصحا ولما كانت تلك الصحوة الإسلامية قوية وصادقة فقد أسهمت سريعا في إيقاظ الأمة محاولةً النهضة من جديد. والنهضة لغة معناها: البراح من الموضع والقيام عنه[1] فالنهضة- بالمعنى اللغوي - فعل والفعل لا بد أن تسبقه رغبة ونية في النهوض (ميل النفس)، والعمل يجمع- في نظري- بين العلم وتطبيقه، وإذا أردنا أن نعرف النهضة فيمكن أن نقول إنها التغيير والانتقال للأمم من حال العلم والإيمان إلى العمل بهما، وذلك يعني أن النهضة بعبارة أخرى هي انبعاث داخلي يولد حركة عملية تربط النظر بالعمل والماضي بالحاضر والدنيا بالآخرة. والتغيير فعل واعتمال داخلي- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الرعد من آية: ١١]، والله تعالى قد اختار النفس دون القلب - (مَا بِأَنفُسِهِمۡ) لأن ميل النفس إلى الفعل مع الهوى يجعل الفعل الإنساني أو العمل أكثر قبولاً واقتناعاً فيأتي الفعل ويُتمّه بحب وشوق يتسق فيه باطن الإنسان مع ظاهره، أو بعبارة أخرى توظيف الهوى ليجرى على سنة الحبيب - صلى الله عليه وسلم – الذي قال من حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة: "لَا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يَكُون هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْت بِهِ"[2].

---

(١) لسان العرب ، ج٧/٢٤٥.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١-١٢. وقال الألباني: إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد، وأخرجه الحسن بن سفيان في الأربعين١/٦٥.

ومن هنا كانت دعوة القرآن لتغيير ما بالنفس؛ لأنها في ذات الوقت محل الإلهام باجتماع للنقيضين ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٨]، وبذلك يكون للعمل ارتباط بالأخلاق؛ لأن العمل يكون – بعد أن يتوافق مع الهوى النفسي- نابعاً عن هيئة راسخة للنفس تصدر عنها السلوكيات والأفعال على سبيل العادة دونما تردد أو تفكير، وذلك هو معنى الخلق عند الغزالي(١). وقد اختار الله تعالى لفظة (قوم) لما لها من دلالة واضحة، وهي أن تغير الأمم والجماعات لا يكون إلا بتغيير أفرادها سواء حملوا على ذلك بوازع السلطان أم اهتدوا إلى ذلك بدعوة القرآن، أي يعملون جميعاً لتحقيق هدف واحد استخلفوا فيه، وهو الإصلاح والعمارة، وهما عماد النهضة. فهل الارتباط بين العلم والعمل واضح في فلسفتنا الإسلامية؟ قبل الإجابة على هذا التساؤل يلزم أن نفرق بين الأفعال والأعمال؟

◆ الفرق بين الفعل والعمل:

فرق بينهما الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن» قائلاً: «العَمَلُ: كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العَمَلُ في الحيوانات إلّا في قولهم: البقر العَوَامِلُ»(٢)، وفرّق بينهما أيضا أبو حيان التوحيدي في «المقابسات» بقوله: «سألت أبا سليمان عن الفرق بين الفعل والعمل فقال: الفعل يقال على ما ينقضي، والعمل يقال على الآثار

(١) انظر: إحياء علوم الدين، ج٣، دار المعرفة ، بيروت، ص٥٣.

(٢) ص ٥٨٧.

التي تثبت في الذوات بعد انقضاء الحركة. قال: والعمل أيضًا يعمُّ كل معنى صادر عن ذات، وحدُّ الفعل: أنه كيفية صادرة عن ذات، والانفعال كيفية واردة على ذات»[١].
ولعلنا نلحظ أن الكائنات الحية تحركها إلى الفعل والعمل غريزة وطبع فطرها الله عليها، ويتسق ظاهرها مع باطنها، أما الإنسان فهو الكائن الحي المكلف الذي قد يكون له ظاهر في وقت يخالف باطنه، وهذا يتسق مع حرية التكليف والمسئولية عن الفعل[٢] ومن المعروف أن الفلسفة-كفعل- هي التشبه "بأفعال الله تعالى، بقدر طاقة الإنسان- أرادوا أن يكون الإنسان كامل الفضيلة"([٣])، أي الذي يتسق فيه النظر مع العمل.

وبناء على ذلك يمكن أن نفرق بين الفعل والعمل في النقاط التالية:

١- العمل يجري وفق خطة زمنية، ومن ثم تكون له آثار مستمرة، وفيه دأب فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، ولكن الفعل حَدَثٌ زمانه ينتهي وليس ممتدا وفق خطه معينة، والله تعالى قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤] ؛ لأنها تُستحق كلما بلغت النصاب وحال عليها الحول. والله تعالى وصف نفسه بالفعل ولم يصف ذاته بالعمل إلا في قوله:﴿ **أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ** ﴾ [يس: ٧١] ومرد ذلك أن الله تعالى لا يسأل عن نيته قبل الفعل ولا عن عاقبة الفعل فهو الأول والآخر ﴿ **لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا**

(١) المقابسة الخامسة والسبعون: في بيان الفرق بين الفعل والعمل، ص ٢٨٠.
(٢) انظر: ركائز الإيمان بين العقل والقلب: محمد الغزالي، ٢٠٠١، ص ١٠٤.
(٣) انظر:رسائل الكندي الفلسفية: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، رسالة حدود الأشياء ورسومها، تحقيق: د.محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط الثانية، الخانجي، القاهرة، ص١٢٢.

يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولكن الخلق موقوفون ومسئولون حتى عن أفعالهم ونياتهم ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، وذلك يؤدي بنا إلى الفرق الثاني.

٢- وهو أن الفعل يكون بنية أو غير نية أي يقع من الإنسان بغير قصد منه أو إرادة، وقد ينسب إليه على الرغم من عدم إرادته له بل دون أن يعرف عاقبته، أما الأعمال فهي دائما مصحوبة بالنية والقصد والتوجه والاختيار والإرادة، وذلك ما يحاسبنا الله عليه بقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة ٧: ٨]، وذلك ما حدده لنا النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ"(١)، يمكن أن نستنتج من ذلك أن العمل =(نية وقصد+ فعل+ يترتب عليه جزاء دنيوي أو أخروي) في حين أن الفعل يمكن أن يكون مسبوقا بالنية، ومن الممكن أن يقع بغيرها؛ ولذلك فهو قد ينسب للعاقل وغير العاقل، أما العمل فيختص بالإنسان وحده باعتباره الخليفة المكلف.

٣- يغلب على الفعل يكون جزاؤه دنيويا أما العمل فيغلب عليه أن يكون جزاؤه أخروياً ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧]. ولا ريب أن الإنسان يُسأل في الآخرة عن

(١) صحيح البخاري، كِتَاب بدْءِ الْوحْيِ، بَاب بدْءِ الْوحْيِ، حديث رقم ١.

أعماله وليس عن أفعاله، كما أخبرنا الرسول-صلى الله عليه وسلم- عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ:...وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟[1]، ولذلك قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيمارواه أَبِو ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: "إِنَّ اللَّهَ قد تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"[2]، وهذه الأمور ليست أعمالا بل هي أفعال ، أي فعل الخطأ والنسيان وفعل ما يُكره عليه الإنسان فهي غير مقصودة من أصحابها، ومن ثم لا يحاسب عليها الإنسان ولا يُلام إن نسبت إليه بل يُعذر فيها، أما الأعمال فإنها تستوجب المسئولية الكاملة خيراً أو شراً والإنسان مكلف بأعمال لا أفعال.

٤- الفعل أعم من العمل إذا نظرنا إليه مجردا عن النية والقصد وما يلحق ذلك من جزاء، وقد يكون العكس هو الصحيح أي أن يكون العمل أعم من الفعل باعتباره يشتمل على الأقوال والأفعال المقصودة، ويتضح ذلك من خلال قول الله تعالى على لسان فرعون لموسى ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩] (وهي قتل موسى عليه السلام للمصري بالوكز الذي لا يؤدي إلى القتل)، فسماها القرآن فعلا وليس عملا لأن النية لم تكن متوجهة لقتله. لو تأملنا هاتين اللفظتين على الرغم من علاقة العموم والخصوص التي تجمعهما في خيط واحد حيث إن كل عمل فعل، وليس كل فعل عملا - لو جدنا أن بينهما اختلافا كبيرا، إذ إن القرآن الكريم قد تحدث عن أعمال الإنسان سواء أكانت تلك الأعمال صريحة أو أعمالا للقلوب كما هو معروف

(١) سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر -٦١٢/٤، عن أبي برزه الأسلمي مرفوعاً.

(٢) سنن ابن ماجه، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ٢٠٠/٣، من حديث أبي ذر الغفاري مرفوعاً.

عند السادة الصوفية في حين أن المتأخرين من المتكلمين قد تحدثوا عن أفعال العباد ولم يتحدثوا عن أعمال العباد على نحو يتضح بصورة أكبر في حديثاً عن مشكلة العلم والعمل في الفلسفة الإسلامية.

المبحث الثاني

مشكلة العلم والعمل في الفلسفة الإسلامية

تتضح مشكلة الانفصال بين العلم والعمل كما عرضنا لها في المبحث الأول باستعراض لمحات خاطفة في بعض مجالات الفلسفة الإسلامية عند أصناف الطالبين لها:

(أ) المتكلمون:

لا يخفى على دارس لأصول الاعتقاد أن العمل هو مرآة للقول باللسان وانعكاس للتصديق بالجنان، على نحو يتسق فيه ظاهر الإنسان مع باطنه؛ لأنه من المفترض أن يعبر العمل عن كمال الإيمان، ومن هنا كان إشكال انفصال العلم باعتباره تصورا أو مقدمة لما يترتب عليه من تصديقه بالعمل به، بل كان ذلك الانفصال بينهما هو الأساس في تجلي صور كثيرة من النفاق (لا يرتبط فيها العمل بالتصديق)، وصور أخرى من الشرك الخفي كالرياء، بل كان المشركون يقرون بالربوبية فالله وحده هو الخالق الرزاق والمحيي والمميت، وعلى الرغم من ذلك فإنهم كانوا يتوجهون بأعمالهم وأفعالهم إلى غيره (وذلك أيضا يطعن في تصديقهم)، لأن في ذلك منافاة لمفهوم الألوهية فإذا كان الله هو المتصرف وحده في الوجود بأفعاله فيترتب على ذلك أنه هو وحده المستحق للعبادة بأفعالنا..

ولم تقتصر أهمية العمل على توجيه الرسول وحثه عليه أو ورودها باشتقاقاتها في القرآن ٣٥٩مرة، بل كان الربط بينه وبين الإيمان أمرا جليا في كثير من خطاب القرآن الكريم للمؤمنين، الأمر الذي ترتب عليه أن يكون الفعل الإنساني وتعلق علم الله به سببا في ظهور الخلاف بين من ينظرون إلى الفعل الإنساني في إطار قدرة الله وعلمه التي

تتضاءل أمامها قدرة الإنسان وفعله، فقالوا إن الله هو الخالق لكل شيء حتى أعمالنا خلقاها الله تعالى فينا ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦] وتنسب إلينا على سبيل المجاز كما يخلقها في سائر الجمادات فنقول أمطرت السماء. وهؤلاء من عرفوا في تاريخ الفرق الكلامية بأهل الجبر أو الجبرية(١)، ولا يخفى ما في مقالتهم من ظل سياسي في تأييد ما يراه الأمويون حقا لهم في الحكم، فما كان لهم أن يترسخ حكمهم إلا بعلم الله وقدرته وقضائه؛ الأمر الذي دعا فريقا آخر – ليكوّن ظلا معارضا للفريق السابق –إلى القول بأن الأفعال حادثة من جهة الإنسان فهو الذي يخلقها أي يقدر وجودها وحده ناظرين إلى عدل الله تعالى، بل تطرف فريق منهم في ذلك– رداً على تطرف الجبرية– فنفوا العلم الإلهي السابق بأفعال الإنسان، وقالوا: لا قدر والأمر أُنُف، أي مستأنف علمه بعد وقوعه، وهؤلاء من عرفوا بالقدرية الأوائل.

الحق أن تلك المشكلة كانت موجودة في عهد النبي– صلى الله عليه وسلم – حينما سأله أحد أصحابه فيمَ العمل إذا كان كل إنسان قد كتب مقعده من الجنة ومن النار؟!! قال: اعملوا كل ميسر لما خلق له(٢). فجوابه أحال على العمل في كل الأحوال باعتباره المخرج من الأزمة.

---

(١) انظر: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤، ج١/ص٨٧.

(٢) ونص الحديث كما ورد في مسند أحمد بإسناده عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا مَعَ جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ يَنْكُتُ بِهَا ثُمَّ رَفَعَ بَصَرَهُ فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ إِلَّا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً فَقَالَ الْقَوْمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشِّقْوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى الشِّقْوَةِ

وتأسيساً على ذلك كان العمل جزءا من العراك الفكري بين الخوارج - الذين يعتبرون المعصية، وهي عمل بما نهى الله عنه تخرج الإنسان من الإيمان ليحكم عليه بالكفر، ولا شك أن لديهم مغالاة في تقدير الأعمال التي يقوم بها الإنسان- والمرجئة الذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة. أي، أن العمل ليس جزءا من الإيمان، وذلك ما حمل ابن أبي الدنيا على العجب قائلا: "من ذلك اشتد عجبي من اجتماعهم على التصديق ومخالفتهم في الفعل كأنهم يرجون الثواب بغير أعمال"(١)، ولكن القضية تطورت لدى المعتزلة والأشاعرة بل تحولت إلى الحديث عن الفعل وليس عن العمل، وأصبح الحديث كله منصبا على أفعال العباد وما يتولد عنها، وعن مدى تعلقها بأصحابها حتى يحققوا معنى المسئولية الأخلاقية للإنسان عن فعله، وهل الإنسان يكتسب أفعاله أم لا؟ ولم يعد هنالك حديث عن نوعية العمل، في حين أن الإمام مالك (ت١٧٩هـ) كان يقول: "ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل(٢)،

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقْوَةِ فَإِنَّهُ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ الشَّقْوَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ ثُمَّ قَرَأَ: "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى إِلَى قَوْلِهِ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى". مسند أحمد: تحقيق أحمد شاكر، ٥٨/٢.

(١) أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد ابن أبي الدنيا القرشي البغدادي: الوجل والتوثق بالعمل، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، الرياض، ط الأولى- ١٤١٨ - ١٩٩٧م ، ص٣٦.

(٢) تحريم النظر في كتب الكلام، موفق الدين بن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، عالم الكتب، الرياض، ط: الأولى - ١٤١٠هـ -١٩٩٠م، ص٧١. وقد أورده ابن عبد البر في التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد:" قال مصعب الزبيري سمعت مالك بن أنس يقول أدركت أهل هذا البلد يعني المدينة وهم يكرهون المناظرة والجدال إلا فيما تحته

والحق هنا أن المعتزلة كانت تعمل وفقا لأصلها الخامس في الأمر والمعروف والنهي عند المنكر. "فالأسس الخمسة التي قال بها المعتزلة منها الأربعة الأولى لا تتطلب عملا، بل هي تنزيه لله وتحديد لموقفه مع الناس من أطاع منهم ومن عصى، وليس يتطلب العمل الإيجابي إلا المبدأ الخامس، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا نفسه ليس يتطلب من الإنسان عملا بصفته إنسانا متدينا، وإنما هو نوع من الإشراف على أعمال الغير"[١] وإذا كان المعتزلة يثبتون قدرة الإنسان المطلقة في خلق أفعاله، أي أنهم مع فاعلية الإنسان فإن كسب الأشعري أقرب إلى معنى الانفعال، ولعل اقتران الصوفية بالمذهب الأشعري يفسر شيئا من التواكل الموجود لدى بعضهم.

وذلك يعني أن هنالك تطورًا عند المتكلمين من الحديث عن العمل عند الفرق الكلامية الأولى إلى الحديث عن الفعل، أي انتقال من الخصوص(العمل) إلى العموم (الفعل) باعتبار أن كل عمل فعل وليس كل فعل عملا. فالمتكلمون المتأخرون يركزون على أفعال العباد وليس على أعمالهم، وتحولوا من الحديث عن حكم مرتكب الكبيرة إلى الحديث عن مطلق الأفعال الإنسانية، بل إن أسماء الفرق الأولى ذاتها كانت تعبر عن حركة عملية ضرورية فهناك شيعة شايعوا عليا رضي الله عنه، وخوارج خرجوا عليه، وهناك من اعتزلوا سواء أكان للحسن أو للفتن فقد سموا معتزلة، فأسماء الفرق تعبر عن مسائل وأفكار عملية ضرورية في حين أننا بعد ذلك نجد أن الأفكار تحولت إلى أشخاص وليست إلى أفعال فهناك زيدية وإسماعيلية وأشاعرة وماتريدية حتى داخل

عمل"تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ، جـ١٩/٢٣٢.

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م، جـ٣/٧٣.

الفرق التي ذكرناها. وليس من المستغرب بعد ذلك أن يظهر التحلل من الشرائع (=العمل) قديماً في صور متجددة تُجمع فيها البهائية والقاديانية في العصر الحديث على التدين الظاهري فحسب متخففة بل منكرة للتكاليف الشرعية(الأعمال) المطلوبة.

ب – الفلاسفة:

إن الغاية من عمل الفيلسوف كما كان يراها أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي (ت حوالي سنة ٢٦٠هـ)- فيما يتعلق بغرض الفلسفة – لأن غرض الفيلسوف في علمه هو إصابة الحق وفي عمله العمل بالحق(١)، أي العمل بالحق بعد العلم به. ولم يكن الفارابي(ت٣٣٩هـ) بعيدا عن ذلك التصور الذي أورده فيلسوف العرب إذ رأى "المعلم الثاني" أن الفلسفة تكون على جزئين: الأول، علمي يعلم، مثل حدوث العالم. والثاني: عملي يعلم ليعمل به، مثل بر الوالدين والإحسان إليهما. ومن العلمين الآخرين تأتلف الحكمة = (علم +عمل). وفي ذلك يقول عن أهمية التطبيق العملي للعلوم: "فإنك إن نازلت إنسانين: أحدهما قد علم ما في كتب أرسطوطاليس كلها من الطبيعة والمنطقية والإلهية والمدنية والتعاليم، وكانت أفعاله كلها أو جُلُّها مخالفة لما هو جميل في باديء الرأي المشترك عند الجميع، والآخر كانت أفعاله كلها موافقة لما هو جميل في باديء الرأي المشترك للجميع، وإن لم يكن عالما بالعلوم التي علمها الأول، فإن الثاني أقرب إلى أن يكون فيلسوفا من الأول. الذي أفعاله كلها مخالفة لما هو جميل في بادئ الرأي المشترك عند الجميع"(٢). ولا يفهم من ذلك أنه يقلل من العلم في مقابل

(١) انظر: رسائل الكندي الفلسفية، رسالة في الفلسفة الأولى، تحقيق: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط الثانية، الخانجي، القاهرة، ص٢٥.

(٢) أبو نصر الفارابي: فصول منتزعة، حققه وقدم له وعلق عليه فوزي متري النجار، بيروت ، دار الشروق ١٩٧٢م، ص١٠٠.

العمل بقدر ما يفهم منه أنه يعلي من ضرورة تطبيق العلم بالعمل وفقاً له، والدليل على ذلك أنه كان دقيقاً حينما عبر عن صاحب الموقف التطبيقي العملي بأنه أقرب إلى أن يكون فيلسوفاً، ولا يكون فيلسوفاً حتى يجمع العلم مع العمل. وليس أدل على ذلك أيضاً من كونه قدم العلوم النظرية – في نظريته لتصنيف العلوم التي أوردها في كتابه القيم "إحصاء العلوم" – على العلوم العملية فجعل علم المنطق الذي بمراعاة قوانينه يُعصم الفكر من الوقوع في الخطأ، وعلم النحو الذي به يستقيم اللسان، وعلم الرياضيات الذي يجرد الواقع وينظمه وفقاً لصور هندسية – مقدمة للعلوم العملية التي تُنزل النظر العلمي على الواقع عملاً وتطبيقاً(١).

ولا ننكر بحال أن للفلسفة- بعامة- أثراً كبيراً في تغليب العلم النظري على العملي في علوم مختلفة كعلم الكلام والتصوف الفلسفي وغيرها، ولكن حال الفلاسفة العملي كان شاهداً بأنهم كانوا موسوعيين ومطبقين لعلومهم قدر الطاقة، فشهرة ابن سينا (ت٤٢٨هـ) كطبيب لم تطغَ على شهرته كفيلسوف، وفي حين أن شهرة أبي بكر الرازي (ت٣١٣هـ) كطبيب كانت طاغية على شهرته كفيلسوف، الأمر الذي دعاه أن يكتب سيرته الفلسفية حتى يثبت بها استحقاقه وجدارته فيلسوفاً. ويفسر لنا ذلك التناقض الظاهري بين كون الفلسفة علماً نظرياً لا عمل تحته إلى أن الفلسفة كانت بمعناها العام أو أنها هي "أم العلوم" قبل أن تنفصل عنها بقية منها، وكذلك كانت الحضارة الإسلامية- حينئذ- مستوعبة وهاضمة ومتمثلة لتراث غيرها، ومن هنا تكون الفلسفة مكملة لسياق حضاري ناجز. ولكن هل ظلت الفلسفة مكملة للحضارة

---

(١) انظر: د.حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية .. مدخل وقضايا، دار الثقافة العربية ١٩٩١م، ص١٥٦، وما بعدها.

الإسلامية أم أنها كانت عبئاً لاسيما بعد أن تدهورت الحضارة الإسلامية وتسربت إلى سائر العلوم الإسلامية؟! وهل جمع المفكرون المسلمون بين علوم الدين وعلوم الدنيا؟! ونظرا لأن جواب تلك التساؤلات يخرج بنا عن موضوع البحث إلى بحث آخر فإننا نرجئه إلى الحديث عن موقف الصوفية من العلم والعمل.

ج- الصوفية:

وفي المقابل نجد أغلب الصوفية أفرطوا على أنفسهم في الحديث عن نوع واحد من الأعمال، وهو أعمال القلوب حيث إنهم سمو الخطرات التي ترد على قلوبهم أعمالاً، ومن ذلك كتب أبو طالب المكي كتابه "قوت القلوب في معاملة المحبوب" وذلك من باب الأخذ بمنهج تخلية القلوب قبل تحليتها باعتبار أن مجاهدة النفس من أهم الأعمال التي يقوم بها الصوفي، ويتضح ذلك بصورة أكبر لدى أبي حامد الغزالي(ت ٥٠٥هـ) الذي عول على أبي طالب المكي(ت٣٨٦هـ) كثيرا في كتبه وتلمذته عليها، فماذا يقصد بالعمل لا سيما بعد أن اهتدى إلى طريق الصوفية الذي يجمع بين علم وعمل؟

■ مفهوم العمل عند الغزالي:

ألف الغزالي كتابا مهما سماه "ميزان العمل" أراد به أن يضع حدا بين العمل المسعد وطريقة العمل المشقي، وذلك باعتبار أن العلم والعمل معا سبيل من سبل تحقيق السعادة[(١)] ولما كانت السعادة والشقاوة أمرين نفسيين فقد اهتم الغزالي بالنفس الإنسانية، ورأي أن لها قوتين علمية وعملية، وهاتان القوتان تسميان عقلاً، وهذا العقل

---

(١) انظر: الغزالي: ميزان العمل، تحقيق د.سليمان دنيا، دار المعارف، ط/الثانية، ٢٠٠٣م، صـ١٧٩.

هو العقل العملي الذي يتولى تدبير البدن، وذلك يعني أن يصدر العمل عن العلم فالعمل تابع له، ولكنه من جانب آخر جعل قوة العمل مسيطرة على كل القوى النفسية الأخرى كالغضب والشهوة وغيرها من الأخلاق الرديئة. أما إذا كانت القوة العملية تابعة للشهوات فذلك يعطينا أخلاقاً رديئة "وإن كانت متسلطة حصلت لها هيئة استيلائية تسمى فضيلة وخلقاً حسناً".(١)

فالعمل(= مجاهدة النفس) لديه شرط في إزالة ما لا ينبغي من الشهوات، وذلك تمهيداً لتحصيل العلم (العلم اللدني)وإحلاله، وهو ما ينبغي أن تكون عليه النفس، والإزالة مقدمة على التحصيل، وشبه ذلك بالمرآة الصَّدئة فلابد من إزالة الصدأ بها وجلوها حتى تحصل بها صور الأشياء بعد صقلها، ومن ثم تؤدي دورها في نقل صور الأشياء، أي تبلغ التمام والكمال(٢)، وذلك هو سعادة النفس وكمالها "أن تنتقش بحقائق الأمور الإلهية وتتحد بها حتى كأنها هي، وإن ذلك لا يكون إلا بتطهير النفس عن هيئات ردية تقتضيها الشهوة والغضب وذلك بالمجاهدة والعمل(٣)، وعن ذلك يقول: "فالعمل معناه كسر الشهوات بصرف النفس عن صبوتها إلى الجنة العالية، ليمحي عن النفس الهيئات الخبيثة والعلائق الردية التي ربطتها بالجبلة السافلة حتى إذا محقت تلك العلائق أو ضعفت حوذي بها نحو النظر في الحقائق الإلهية، ففاضت عليه

---

(١) الغزالي: ميزان العمل، صـ ٢٠٤.

(٢) ميزان العمل، صـ٢١٧، وما بعدها.

(٣) ميزان العمل، صـ٢٢١.

من جهة الله تعالى تلك الأمور الشريفة، كما فاضت على الأولياء والأنبياء والصديقين".[١]

وهنالك اتفاق على العمل بأنه مقصود لمحو الصفات الرديئة وتطهير النفس من الأخلاق السيئة، ولكن جانب العلم مختلف فيه بين الصوفية والنظار، فبعض الصوفية لم يحرصوا على تحصيل العلوم الكسبية وتحصيل ما صنفه المصنفون في البحث عن حقائق العلوم[٢] بل كل ما هنالك التصفية وإحضار النية والانتظار للعلم اللدني أو ما يفتحه الله من الرحمة، وذلك هو منهج بعض الصوفية.

ونظراً لهذا الاهتمام الجم بأعمال القلوب والتجاوز فيه وجدنا بعضاً من متفلسفة الصوفية قد فرطوا في أعمال الجوارح وقالوا بإسقاط التكاليف سواء من باب المحبة التي يعفو فيها المحب عن خطأ أو عمل محبوبه أو من باب الحلول والاتحاد بل سعى بعض آخر إلى ترك الأعمال بالكلية توكلاً على الله حسب فهمهم، وذلك – في حقيقة الأمر – هو عين التواكل، وبناء عليه اعتبر ابن الجوزي(ت٥٩٧ه) أن التصوف مساوٍ للكسل.[٣] فالتواكل عند بعض الصوفية وغياب العمل قد أخذ مساحة كبيرة حتى أن بعض المتصوفة قد اعتبروا أن النية أفضل من العمل. مستندين إلى أحاديث نبوية مثل قول الرسول– صلى الله عليه وسلم : "إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا يا رسول الله، وهم بالمدنية؟ قال: وهم بالمدنية، حبسهم العذر"[٤]

(١) ميزان العمل، صـ٢١٨، ٢١٩.

(٢) ميزان العمل، صـ٢٢١.

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزي، ٢٥. وهذا القول غير مسلم لابن الجوزي بإطلاق.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب ٨١، رقم ٤٤٢٣.

وهناك أحاديث أخرى تصب في هذا المعنى، فمن حديث سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عن الرسول- صلى الله عليه وسلم - قال: "**مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا مِنْ قَلْبِهِ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ**"(١) ولكن بعض الصوفية تواكلوا وتركوا الأعمال واعتزلوا الحياة اعتمادا على نوياهم الحسنة. ولا ريب أن ذلك يتعارض مع مفهوم العبادة الشامل لكل نشاط إنساني مفيد يكون مصحوباً بنية العبادة لله باعتبارها اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ورسوله، لاسيما إذا لم يكن لهم أعذار تمنعهم من العمل.

والعجيب أن بعض الملامتية من الصوفية كانوا يعملون من الأعمال ما يكون سبباً في لومهم وتقريعهم مبالغة في التنزه عن مراءاة الناس بل إن المراءاة دفعت بعض الصوفية إلى ترك الأعمال خشية أن يدب إليها الرياء(٢)، ولعل ذلك قد أسهم في وجود مشكلة بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة، فالفقهاء(أهل الشريعة) ركزوا على ظواهر الأفعال أو أفعال الجوارح فحسب، في حين أن الصوفية- أصحاب الحقيقة- ركزوا على أعمال القلوب، ومن هنا ظهر النزاع بين أهل الشريعة والحقيقة أو بين أهل الظاهر وأهل الباطن. إذن فهي ذاتها مشكلة الفصل بين الظاهر والباطن أو بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

وذلك يعني أن مشكلة الانفصال بين العلم والعمل قديمة حيث تنبّه إليها الحافظ البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت٤٦٣هـ) وسمى كتاباً له بعنوان "اقتضاء

---

(١) سنن الدارمي، كِتَاب الْجِهَادِ، بَاب فِيمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ، حديث رقم٢٤٠٧.

(٢) د.أحمد محمود صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف، ط١٩٨٣/٢م، صـ٢٧٧.

العلم العمل" وقال فيه: "العلم شجرة، والعمل ثمرة، والعلم والد، والعمل مولود"[(١)]، أي أنه يجمع بين العلم وتطبيقه، ولكي يكون هذا العمل باقيا للإنسان يشترط أن يراد به الآخرة، وبناء عليه سمى الغزالي كتابه "ميزان العمل"، بعد أن وضع له معياراً سماه "معيار العلم" في لفتة مباركة إلى الجمع بين التحقيق العلمي والتطبيق العملي، وإن كان وفقاً لمفهوم الصوفية للعلم والعمل.

(د) مشكلة الفصل في الفكر الإسلامي الحديث:

إذا كان المتكلمون والصوفية قد أهملوا العمل معولين على النظر من جانب والعلم اللدني أو الباطني من جانب آخر فإننا في الفكر الحديث نجد أن العكس هو الصحيح فالتعويل على العمل كان هو الأساس في تهميش الدين أو العلم والنظر الشرعيين عند المسلمين ، ويمكن أن نقسم اتجاهات النهضة في ضوء ذلك على النحو الآتي:

الأول: اتجاه علماني: يرى أن نهضة الأمة الإسلامية لا تتم إلا باستدعاء تجربة النموذج الغربي في النهضة الأوربية الحديثة، وذلك بـ(فصل الدين عن الدنيا= ما لله لله، وما لقيصر لقيصر) أو بعبارة أدق فصل سلطة رجال الدين عن الدولة مع ملاحظة أن الدين حاضر في النهضة الأوربية، وآية ذلك أن رؤساء الدول المعاصرين لم يبارحوا الدين، فالرئيس الأمريكي السابق "جورج بوش الابن" قال غير مرة عن غزوه للعراق: إنها حرب صليبية. وذلك بعد الأحداث التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر، ومازالت اتجاهات الغرب اليمينية تقود باسم الدين وتخوض من أجله الحروب، وذلك على الرغم من الثورة على الدين أو تثويره من قبل بل محاولات إصلاحه مثل حركة

---

(١) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط الرابعة ١٣٩٧هـ، ص١٤.

الإصلاح البروتستانتي، وغاية الأمر أنها نهضة دنيوية يُسخر فيها العلم أو المنهج التجريبي الحديث لصالح الإنسان حتى ولو سوغ له قتل أخيه أو إباحة المثلية الجنسية ناهيك عن جواز الزواج من نوع آخر كالكلاب والقطط والحمير وغيرها من الموبقات التي تخالف الأديان والقيم المثلى. ويظن بعضهم أن الدين أفيون الشعوب ويعطل طاقاتها عن العمل والإنتاج، ويجعل منهم سكارى ولا يبتغون من العمل سوى دنيا يصيبونها. ويمثل لهذا الاتجاه بصفة عامة سلامة موسى وشبلي شميل وحسن حنفي وغيرهم.

الثاني: اتجاه مخالف للاتجاه السابق تماماً إذ يرى أن النهضة الإسلامية لابد أن تنبع من دينها وتراثها، وذلك باستدعاء تجربة السلف الصالح في زمن ومكان رجال معلومين قبل الخلاف الذي دب في صدر الأمة (أي باتصال الدنيا بالدين) فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أعني الاتباع للسلف الصالح، وإن كانوا يختلفون حول فهوم تلك الفترة، ومن ثم فإنهم يختلفون حول تطبيق تلك الصورة حسب درجة احتلافهم حول تلك الفهوم. ويمثل لهذا الاتجاه الأفغاني ومحمد عبده[1] ورشيد رضا وحسن البنا وسائر التيارات الإسلامية المعاصرة على تنوع أنشطتها وأحزابها، وهذا الاتجاه لا يرمي إلى عودة الماضي فحسب بل إلى تجديد الدين وبعثه من جديد وتخليصه من سلوكيات الناس الخاطئة حتى يوكب روح العصر، استنادا إلى حديث أبي هريرة عن

---

(١) انظر: د.محمد عابد الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣/٢٠٠٩م، ص١٢١.

الرسول – صلى الله عليه وسلم– قال: "**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**".(١)

الثالث: وهنالك تيار ثالث توفيقي حاول التوسط بين تراثنا فيأخذ منه ما يوافق العصر، وينظر إلى الحضارة الأوربية ويأخذ منها ما لا يتناقض مع قيمنا الحضارية والدينية. ويمثل هذا الاتجاه رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي.

الصراع بين الاتجاهات ورؤية كل فريق للآخر:

الاتجاه الأول **العلماني** يطلق على الاتجاه الثاني أنه سلفي أصولي رجعي ماضوي متخلف، وذلك الحكم صادر من منطلق واقعي دنيوي، وغاية الأمر أنهم لا يعترفون بالماضي ويعتبرونه رجعية وتخلفا وأن النهضة الحقيقية في متابعة الغرب وعيش الحياة الحاضرة تبعا له، واعتبار الماضي مرحلة تاريخية يجب تجاوزها لنلحق بركب الحضارة الغربية. ويرون أن بعض السلفيين يريدون أن يعيشوا في الماضي فحسب ويعدون أنفسهم غرباء في عصرهم، ومن ثم فليس لديهم رؤية واضحة تنير السبيل ويستندون على أفهامهم في فهم هذا الماضي وكأنهم يمتلكونه حقيقته أو كما عبر أحدهم بأنهم "مُلَّاك الحقيقة المطلقة"(٢) .

والاتجاه الثاني وهو **الإسلامي** يطلق على الأول الاتجاه العلماني اللاديني بل يصل الأمر إلى تكفيره عند بعض التيارات، ولا ريب أن ذلك الحكم صادر من منطلق ديني. وأما **الاتجاه الثالث** لدى هذين الاتجاهين فهو اتجاه تلفيقي وليس توفيقياً.

---

(١) سنن أبي داود – كِتَاب الْمَلَاحِمِ – إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، رقم 4291.

(٢) د.مراد وهبه، مكتبة الأسرة، ط ١٩٩٩م.

◆ **المشكلة مع هذه الاتجاهات:**

أزمة الاتجاه العلماني، ويمكن تلخيصها في ثلاث نقاط مهمة:

الأولى: أنه حينما ينادي بالقطيعة (=الانفصال) مع التراث العربي فيلزمه أن يرفض أيضا تقليد التراث الغربي الذي قامت عليه الحداثة؛ لأن التراث الغربي منتقل في الحداثة الأوربية كما تنتقل صفات الأب في الابن، فإذا كانت الدعوة إلى القطيعة مع التراث فلتكن مزدوجة لكل تراث، فليس من المقبول أن يحل طائفة من المسلمين تراثا غربيا يتسق مع القيم الدينية النصرانية بدلا من التراث العربي والإسلامي الذي يتسق مع الذات العربية والإسلامية!!.

الثانية: ثمة مشابهة بين دعاة التغريب اليوم والفلاسفة القدماء في موقفهم من الفلسفة باعتبار أن الفلسفة اليونانية كانت وافدة، فالقدماء من الفلاسفة كالكندي والفارابي وابن سينا لم يكتفوا بنقل الفلسفة اليونانية كما هي كما يريد التغريبيون في عصرنا أن ينقلوا التراث الغربي كله، وإنما تفاعلوا معها وحاولوا التوفيق بينها وبين الدين الذي كان عزيزا مصانا ومعبرا عن حضارة قوية، أما التغريبيون في العصر الحديث فقد حاولوا النهوض بإلغاء الدين واستبعاده كلية واعتباره عقبة في طريق النهضة، ومن ثم فقد سُمِّي القدماءُ فلاسفةً كالكندي فيلسوف العرب الذي انتصر للدين ولكلام الأنبياء وأعلى من شأنه في مقابل كلام الفلاسفة، لم تكن المحاولة مقتصرة عليه فحسب بل كانت هناك محاولات أخرى لم تنجح كالفارابي وابن سينا اللذين انتصرا للفلسفة على حساب التأويل للدين؛ وعلى الرغم من ذلك فقد أضافوا إلى الفلسفة اليونانية في حين أن دعاة التغريب لم يضيفوا شيئا إلى ما يدعون إلى نقله، مكتفين فقط بالنقل الكامل عن الآخر، وبناء عليه فشلت محاولتهم في زرع التغريب أو الفكر الغربي ونقله إلى قلب

العالم الإسلامي، ولا غرو فقد فشلت التجربة الشيوعية والقومية والليبرالية والعلمانية(١). وهذا هو الأمر الذي أود أن ألفت النظر إليه، وعلى الرغم من ذلك فمن المفترض أن هذا الفكر الوافد ينقل إلى واقعنا ليصلحه، فإن لم يصب هذا الدور فلا يستأهل النقل بل ستقاومه مناعة الأمة الفكرية كما يقاوم الجسد العضو الغريب عنه إذا استزرع فيه.

الثالثة: وهو مترتبط بما قبله، ويصوره أحدهم بقوله: "تراجع كثير من رواد هذه الدعوة في مراحل معينة من حياتهم واعترافهم بخطأ المواقف التي اتخذوها. إن قائمة هؤلاء المتراجعين طويلة وتمتد على مدى هذا القرن كله، فمنهم الذين تراجعوا بصمت وانكمشوا في نوع من اليأس، ومنهم من أعلن عن تراجعه ومارس نوعا من النقد الذاتي أمام الملأ. من هؤلاء شخصيات فكرية معروفة نقتصر على ذكر بعض الذين غادروا الحياة منهم أمثال: منصور فهمي، ومحمد حسين هيكل، وإسماعيل مظهر، وطه حسين، ومصطفى عبد الرازق، وآخر شخصية في هذه القائمة هو المرحوم الدكتور زكي نجيب محمود. أما الأحياء من هؤلاء فلا داعي لذكر أسمائهم فهم معرفون وكثيرون منهم يحتلون مواقع في الجهة الأخرى المضادة للتي كانوا فيها قبلا"(٢) ولعله يقصد بذلك د.محمد عمارة.

---

(١) وقد كتب د. محمد عمارة عن سقوط الغلو العلماني، و كتب أ.د. السيد رزق الحجر بحثاً بعنوان"اضمحلال مشروع النهضة العلماني".

(٢) د.محمد عابد الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢٠٠٩/٣م، ص١٢٤.

◆ **أزمة الاتجاه الإسلامي (فكر الأزمة أم أزمة الفكر):**

فكر الأزمة يعني أننا نحاول أن نرد على الفكر الغربي الوافد بما يقابله في تراثنا الفكري والحضاري القديم لنثبت لأنفسنا أننا نمتلك أفضل مما عليه الغرب وأننا كنا متقدمين، أي أننا نحاول أن نقابل حداثة الحاضر والمستقبل بالعودة للماضي ومحاولة الغوص فيه، وذلك يعني أننا في موقف دفاعي دائم ينحصر فكر كل اتجاه في محاولة مقاومة الآخر. وذلك هو أزمة الفكر بالفعل إذ الهم الأول للتيارات الإسلامية وعلى رأسها الاتجاهات السلفية هو مقاومة علمانية الحاضر وعولمته بالتمسك بالماضي وتراثه وتتوقف حياتهم على ذلك الموقف الدفاعي دون أن نعمل لحاضرنا ومستقبلنا حسبما نريد لأنفسنا لا كما يريد لنا غيرنا.[1]

ويتضح الفرق بين فكر الأزمة وأزمة الفكر من خلال مفكرين كبيرين: الأول، وهو الشيخ جمال الدين الأفغاني(ت١٨٩٧م). والثاني، هو الشيخ محمد عبده (ت١٩٠٥م). فهما مشتركان في الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ولكنهما اختلافا في الطريقة فدعا الشيخ الأفغاني إلى فكرة الجامعة الإسلامية لمواجهة الاستعمار الغربي لدول العالم الإسلامي في حين أن الشيخ محمد عبده قد عمل على وحدة الأمة من خلال إرساء مفهوم التوحيد وبيانه ليكون هو المنطلق الذي تجتمع عليه الأمة لتحقيق الوحدة. فالأولى دعوة لرد فعل غربي هو الاستعمار، والثاني عمل لتحقيق هدف داخلي تحتاجه الأمة لتطهير عقائدها من الانحرافات فإذا تم ذلك اتحدت على كلمة التوحيد.

---

(١) انظر: طه جابر العلواني: إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/١٩٩١م، ص٥٧.

◆ **أزمة الاتجاه التوفيقي (النهضة عربية أم غربية؟):**

لا يخفي على متأمل أن العالم الإسلامي الآن في ظل العولمة أصبح سوقا للمنتجات الغربية باعتبار أن الغرب صاحب نهضة حديثة جاءت بعد عصور الظلام الوسطى وبعد ثورة علمية هائلة على الكنيسة التي كانت تحرم أو تجرم أي لون من التقدم العلمي التجريبي، ومضى الغرب اليوم إلى آخر شوط في تقدمه وأصبح رائدا للعالم بمخترعاته ومكتشافاته، وأخذ العالم العربي دور أوربا في عصورها المظلمة، الأمر الذي أصبح معه سوقا رائجة لكل منتجات الغرب والشرق على السواء.

والحق أننا لو تأملنا حال الأمة المستهلكة التي يصب فيها نهر الحضارة الغربية سنجد أن لذلك آثارا سلبية عديدة، منها أنه يقتل روح الإبداع والابتكار لدي هذه الأمة؛ لأنه لن تكون هناك حاجة ملحة تدعوها للعمل أو الاختراع لتحل أي مشكلة من مشكلاتها الواقعية، وإذا كان الغرب يبتكر ما من شأنه أن يسيطر به على الشرق بمنتجاته التي تقتل الإبداع في العالم العربي والإسلامي؛ لأنه يؤمن بالهيمنة على العالم والسيطرة عليه إن لم يكن بالفعل استعمارا فبالقوة تغريبا وتصديرا لمنتجاته وثقافته، فهذا يعني أننا- كمواطنين- إذا كان كل شيء قد نحتاجه موجودا حولنا فليس هناك حاجة للاختراع أو العمل الحضاري؛ لأن الحاجة -كما يقال- هي أم الاختراع، ولنأخذ على ذلك مثالا ببعض دول العالم العربي التي تعيش في حضارة استهلاكية فإنها لا تنتج ولا تجنح إلى العمل طالما أنها يمكن أن تشتري كل ما تحتاجه.

ويترتب على ذلك مشكلة كبرى لدينا، ألا وهي البطالة على الرغم من وجود المقدرات والخيرات التي يسعى إليها الغرب المتقدم لا لشيء إلا ليوجد فرصة عمل حقيقية للمواطن الغربي الذي تربى على أن يكون له دور في خدمة بلده والارتقاء بنفسه، أما شعوبنا التي تعودت وربيت على القعود والتخلف عن الخروج للعمل

والاستكبار عليه فيكفيها أن تستهلك فحسب. ويفسر قاسم أمين(ت١٩٠٨م) سبب خمول المصريين وركونهم عن العمل بالآتي:

"الأول: سوء معاملة الحكومات السابقة له، فإنها بغدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية، ففقد المصريون بذلك ملكة الإقدام على العمل والمخاطرة في الشغل. والثاني: سوء تربيته، فإن عدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات، بل وأياما على المقاعد والمراتب والمصاطب، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ، وترك النظر في الأشياء مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم، وتكرار سماع القصص والأحاديث التي وضعت في الأصل لتسلية الفقير وإزالة الأحزان عن الضعفاء قليلي الحول والحيلة، ولكن غشيتنا جهالتنا وألفيناها قد اتفقت مع كسلنا وخمولنا، فنشرناها وروجناها ...كل ذلك قد انتهى مع الزمن، وبتأثير الوراثة إلى إضعاف قوانا شيئا فشيئا ... وهذا هو السر في أن جميع الأعمال القليلة التي شرعنا فيها كتأسيس مدرسة أو إنشاء جمعية أو تشكيل ناد أو عقد شركة لم تعش إلا بقدر ما تعيش الوردة"(١) الحق أن ما ذكره قاسم من أسباب معبرا عن زمنه وما قبله تصدق على حالنا بصورة أكبر، فالأمر مشترك بين الشعوب والحكومات وإن كانت الثانية هي المعول عليه في سرعة الإنجاز. ولنذكر هنا هذا الموقف النبوي الرائع الذي يتعلق بأقدار الأمم لا الأفراد يسأل النبي أحدُ أصحابه فِيمَ العمل يا رسول الله إذا كان علم الله قد أحاط بمن هو في الجنة ومن هو في النار يعني إذا كانت النتيجة محسومة ففيمَ العمل؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

---

(١) د.محمد عمارة: الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ص ١٧٧.

نعم، الإجابة محسومة في علم لله تعالى في حين أنها غير محسومة للإنسان فليس لأحد أن يطلع على علم الله السابق، فكل إنسان بالخيار في نوعية العمل الواجب فهو يعمل باعتبار أنه قد يكون من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة، أما إذا كانت الحاجة متحققة وموجودة بالنسبة للإنسان ومحسومة له أيضاً ففيم العمل أصلاً؟! الغني لا يعمل لأنه غير محتاج، والفقير يطحنه العمل لحاجته. هذا منطق القعود والتكاسل الموجود الآن. وفي كلا الحالين فالعمل مطلوب لأنه دور الإنسان في الحياة، ولو لم يعمل لفقد الإنسان أهليته وسعادته أيضاً بل حياته كلها، وهذا نفسه ما يشعر به الإنسان المستهلك في العالم العربي. أما الإنسان الغربي فيشعر بأنه يؤدي دوراً وإن كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾[الكهف: ١٠٤].

❁❁❁

المبحث الثالث
خطوات على طريق النهضة

صفوة القول أن للعمل الصالح مكانة كبرى فقد جعل الله تعالى لكل نبي حرفة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]. والقرآن الكريم تحدث عن الزارع والصانع والحداد والنجار، والحائك للملابس والصائغ للحلي[١] وكذلك السنة النبوية. ولو أراد الله لكفى أوليائه، ولكنه أجرى على ألسنتهم الحكمة النبوية: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: "**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ للَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**"[٢]. وليس المقصود من العمل مجرد الحركة التي يستوى فيها الإنسان والحيوان بل إنها إن لم تكن حركة تصدر عن ميزان عقله فهو حيوان بالفعل، فالحركة المنظمة المنهجية العملية هي ما ينبغي أن تكون عليه أخلاقيات الإنسان وسائر أعماله التي تصدر بوعي واتقان. فالظاهر قد يكون واحدا ولكن الباعث هو المختلف بين من يصدر عن حكمة وعقل وبين ما يصدر عن غريزة وطبع.

وبناء على ذلك فنحن لا نحتاج إلى خطط نحمل عليها بل في حاجة إلى الإنسان المخطط كل في مجاله، فإخلاص كل عامل في عمله هو النهضة الحقيقية، وذلك هو ما فعله الرسول– صلى الله عليه وسلم– في مجتمع المدينة فلم تكن النهضة مادية ملموسة

---

(١) انظر: أحمد مبشر جالو: قيمة العمل في الإسلام وفي الفكر الوضعي المعاصر، سلسلة الرسائل الجامعية المنشورة، ٩٣، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية جـ١/١٠٠: ١١٠.

(٢) صحيح البخاري – كِتَاب الْبُيُوعِ – باب كسب الرجل وعمله بيده.

إذا قارناها بما كان موجودا عند غيرهم من الأمم كالفرس أو الروم، بل كان الإنسان هو الأساس الذي بنيت عليه النهضة والفتوحات الإسلامية؛ إذ كان الرجل الواحد يفتح به الله دولة من الدول، وذلك ليس لأنه رسم خريطة للمجتمع الذي فتحه بل لأنه رسم خريطة لنفسه رأس مالها الإخلاص لله ولرسوله وعمادها العمل الصالح. فإذا تم بناء الإنسان من الداخل بحيث لا يكون هنالك انفصام بين أقواله وأفعاله فإننا بذلك نحيي فيه إنسانيته وحضارته مستلهمين ذلك المعنى من قول الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام: ١٢٢]، ومن هنا قال المفكر الهندي المعاصر وحيد الدين خان: "والواقع أن مسألة المشروع إنما هي مسألة إعداد وتربية للأفراد، فإن الأفراد لا يخرجون من مصنع، ولا يتكونون في شعب من الشعاب الخارجية، والطريق الوحيد لإعداد الأفراد هو إثارة حركة خالصة على أساس الدين القيم تمس فطرة الإنسان"(١). فالنهضة ليست صورا وأشكالا وعمرانا نعجب بها ولكنها إرادة وقدرة مفعلة، وذلك ما رآه الشيخ محمد الغزالي(ت١٩٩٦م) في قوله: "النهوض الحقيقي لأمتنا هو قدرتها على الاستغناء بعلمها وإنتاجها، والاستهداء بإيمانها وفضائلها، والاستعلاء على متاع الدنيا بحيث تأخذ منه بقدر، وتنصرف عنه متى تشاء"(٢) ويرى أيضاً أن مقياس النهضة هو أن تبقى في كيان الإنسان جميع المبادئ التي

---

(١) قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، دار الصحوة ، ط الأولى ١٩٧٨م، ص١٧٢.

(٢) محمد الغزالي: النهوض الحقيقي لأمتنا، مقالة بمجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٠٨، ديسمبر ١٩٧٣م، ونشرت ضمن مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي، الوعي الإسلامي، ط٢/٢٠١٢م، ص٣٢٩.

يمثلها والتي يرتبط بها، فـ"النهضة الحقيقية هي التي تفلح في استثارة قوى النفس، وفي جعل الأمة على اختلاف طوائفها كخلية النحل نشاطاً ونظاماً."[١]. وقد نشر "قاسم أمين" بعض مقالاته في جريدة "المؤيد" دون توقيعه عليها عن حاضر المصريين وأحوالهم الاجتماعية والثقافية، ومنها تلك المقالة التي استمد عنوانها من الحديث النبوي الموقوف على عبد الله بن عمر (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) [٢] وذلك لأن المصريين أصبحوا في خمود أشبه بالموت بل حافظنا على ذلك الخمول في معيشتنا، ومن ثم لزم التذكير بالحياة بالعمل، وهذا العمل لا يقتصر على أن يسعى الإنسان ليعيش عيشة الكفاف، ولكن لتحسين حالتيه المادية والأدبية".[٣]

وذلك ما رآه أيضاً رفاعه الطهطاوي بقوله:"إن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة، ومع أن كد العمل مصدر السعادة الأصلي فهو أيضاً يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته، بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة، أزيد مما تساعد على إيرادها للعمل...ودليل ذلك أن الأمة المتقدمة في ممارسة الأعمال والحركات الكدية ذات الكمالات في العملية المستكملة للأدوات الكاملة والآلات الفاضلة والحركات الدائمة، قد ارتفعت إلى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضي الخصبة الواسعة، الفاترة الحركة، فإن أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج، فإذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وإفريقية ظهر لك حقيقة

---

(١) السابق نفسه.

(٢) لا يصح هذه الحديث مرفوعا عن النبي – صلى الله عليه وسلم- وروي موقوفا أيضا على عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٣) الأعمال الكاملة لقاسم أمين، د.محمد عمارة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٨م، ص١٧٦، ١٧٧.

ذلك"(١) فالنهضة الحقيقية مبناها العمل المتقن المجود الباقي بأثره، والعمل الصالح الموصل للسعادة الدنيوية والأبدية له سبل مهمة للنهضة- من وجهة نظري:

الأول: تحويل الفعل إلى عمل (=معاملة):

ولكي تكتمل العبادة الحقة فلا بد أن تظهر في صورة طاقة إيمانية دافعة ودفاقة، وهي التي يتعامل بها بإدارة حياته فالعمل مع الناس أي معاملتهم، ولدينا في أبواب الفقه على المذاهب الأربعة باب المعاملات، مثل: البيع والشراء والإيجارة والشراكة والرهن وغيرها، وهذه المعاملة بصورها المختلفة تحتاج أيضا إلى التربية والقدوة والمثال حتى يسعد الناس في حياتهم. ومطلق الفعل حينما نحوله إلى عمل فهو معاملة، تقتضي الإخلاص والاتقان والمراقبة لله تعالى. فالعمل يؤدي إلى ترسيخ العلم فالله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والتقوى- كما عرفها الإمام علي العمل بالتنزيل -فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم=(فيوضات من الله تعالى)= أو يجعل له فرقان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] نلاحظ أن هناك شيئين: اتصالا بين الإيمان والعمل في الآيات. وانفصالاً في الواقع بينهما.فالله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] هذا الفصل الذي يؤدي إلى الفصام يحمل خطورة أخرى، إذ يباعد بين العلوم الشرعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية... ولهذا تم الربط بين مقدمة سورة العلق الداعية للجمع بين القراءتين وأزمة الطغيان والتطاول الإنساني للنسق

(١) الأعمال الكاملة للطهطاوي، جـ١/٣٩٠.

الحضارية الوضعية المتعالية بتطورها العلمي التطبيقي المجرد: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى* أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى* إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾ (العلق: ٦-٨).فقضية الجمع بين القراءتين مسألة منهجية في المعرفة وتقود إلى نتيجة حضارية فالذي يجمع بين القراءتين لا يستغني عن الله لأنه يدرك دوماً افتقاره إليه فلا يستبد ولا يبتغي علواً في الأرض ولا فساداً"[١].

تأسيساً على ذلك فدور الإنسان من بداية حياته هو استخلاص العمل لله باعتباره هو لب العبادة﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وذلك ما يبقى للإنسان بعد موته، وقد دعا رفاعة الطهطاوى إلى العمران الحضاري في تلخيصه وتعليقه على حديث إذا مات ابن آدم بقوله: "من هذا الحديث النبوي أن الإنسان يخلد عمله بعد انقضاء حياته، بالعلم النافع للأمة، والصدقة الجارية التي تؤيد شرفه ونبله، والولد الصالح الذي يؤيد نسله فإذا كثر أفراد هؤلاء الناس الجامعين للفضائل، المستكملين للمآثر الجميلة والشمائل، انتظم بهم التمدن والعمران وحسنت أحوال الأهالي والبلدان".[٢]

ثانيا: تحويل العمل أو المعاملة ذاتها من عادة إلى عبادة =(الاستخلاف في الأرض والعمران الحضاري):

مفهوم العمل من وجهة نظري أنه النشاط الإنساني الذي يشمل كل تحركات الإنسان وهذا المفهوم الواسع يمكن أن نفهمه في ضوء قوله تعالى﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وهذا يعني أن الله تعالى كلف

---

(١) د. طه جابر العلواني : التوحيد ومباديء المنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/٢٠٠٧م، ص ٩٣ .

(٢) الأعمال الكاملة للطهطاوي، جـ١/٣٨٠.

الإنسان بأعمال يأتي منها ما يستطيع ونهاه عن أعمال، فالعمل هو الأساس للقبول الديني والدنيوي لاسيما إذا كان هذا العمل ينطلق من الدين من جهة ويربط كل نشاط إنساني بالله من جهة أخرى. وقد يعمل الإنسان مع الله فصورة العمل هنا تسمى عبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولما كان الإنسان مكلفا بأن يكون خليفة في الأرض ومحملا بأمانة عمارتها باتت الحضارة والعمران ما هي إلا مظهر من مظاهر النشاط الإنساني المنظم مع الطبيعة ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، فاستخلاف الإنسان مرتبط بعمارة الأرض، ومن ثم فالعمران دعوة إلهية ولا يكون ذلك إلا عن طريق العمل الصالح.

وبناء على ذلك فالعمل هو الأساس في حياة المسلم شرط أن يكون عملاً صالحاً، والعمل الصالح = إنتاج صالح=وهو يساوي خير عميم=وهو يساوي حضارة عظيمة وتلك هي النهضة الحقيقية. إذا فتركيز المسلم في العمل الصالح وحده باعتبار أن فيه مفتاح سعادته الدنيوية والطريق الموصلة للسعادة الأخروية. وكيف يكون ذلك؟ وهذا ما يدعونا للنظر إليه من الناحية النفسية؟ فلو ضربنا على ذلك مثالا مجربا للعمل نجد أنه يخرج الإنسان عن حالاته النفسية السيئة، فإذا كان الإنسان غاضبا ينصحه الأطباء بالخروج إلى مكان آخر أو أن يرى أناساً آخرين، أي أن الحركة العملية بتغيير الوضع أو المكان هو السر العملي في الالتئام النفسي، وذلك ما قال عنه الرسول إذا كان غاضباً جلس وإذا كان جالساً وقف؛ لأن ذلك النشاط العملي البسيط يجعل الإنسان يخرج عن حالته ويخفف من توتراته ويهدئ من تلك النفس الثائرة، ومن ثم فليس صحيحاً ما يقوم به البعض من الانطواء إن صادفتهم مشكلات بعدم الخروج لأن المشكلة تستولي عليهم تجعل أنفسهم أسيرة لها مما يجعل حالته النفسية تتردى بل قد يدفعه ذلك إلى

أعمال مضادة قد تودي بحياته كأكثر حالات الانتحار المنتشرة اليوم. وكذلك المريض إذا لم يعمل انشغلت نفسه بمرضه وحالاته ومآلاته ويجلس ينتظر النهاية لا أن يصنعها هو فإن كان من النوع الأول قضى عليه المرض ونشبت المنية أظفارها فيه بأسرع وقت، أما إذا كان من النوع الثاني فإنه يصنع التاريخ، ولذلك صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسك إن لم تشغلها بالحق (أي بالعمل الصالح) شغلتك بالباطل(أي بالعمل الطالح المهلك).

الثالث: تحويل العلم إلى عمل في الحاضر(= عملية التعليم):

ليس من قبيل المصادفة على لغة الإعجاز أن يكون الجذر اللغوي لمادة العلم (ع ، ل ، م) هي ذاتها بالقلب المكاني العمل (ع ، م ، ل)، والعلم كوصف ليس قائما بذاته، وإنما هو قائم بالعلماء، وعمل العلماء هو التعليم، فالتعليم هو الصورة العملية للعلم باعتباره عملا يظهر في صورة إبلاغه للمتعلمين، بل سبيل من سبل طلبه إذ ورد في الأثر عن على رضى الله عنه قَالَ: **يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ**[1]، ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم؛ وذلك لما يثيره سؤال المتعلم في العالم من داعية للبحث والتأمل للمسائل وتصورها، فالعمل يفتح الباب للتساؤل ومحاولة تنزيل الفكر وتحويله إلى أعمال واقعية، ومن هنا فإن عمل الفقيه هو تنزيل الأحكام النظرية عمليا على الواقع؛ فيزداد علما بل يرسخ علمه ببذله لمستأهله، بحيث لو كتمه عنه عاقبه الله في الآخرة بلجام من نار جزاء وفاقا كما كان يكتمه في الدنيا عن مستأهليه ومستحقيه، وذلك هو التعليم المباشر الذي يتلقي فيه جمع عن عالم

---

(١) سنن الدارمي – الْمُقَدِّمَةُ – يا حملة العلم اعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله.

أو أستاذ. وعندما أخبر الله تعالى عن أفضلية الإنسان كان العلم الذي علمه الله للإنسان(العلم بأسماء الأشياء لا مسمياتها) هو الذي يرتفع بهم عن الملائكة ثم عرض المسميات على الملائكة طالبا منهم أن يخبروه تعالى بأسمائها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣١، ٣٢]. فالإسلام لم يميز عملا على غيره ولم يزدر أصحاب الأعمال اليدوية كما كان الناس في الحضارة الإغريقية، وإنما جعل المرسلين في مهن غاية في التواضع حتى يكونوا أسوة وقدوة ويرفعهم الله بتواضعهم له، وجعل الإكرام لهم هو التقوى إنَّ﴿ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].فالحضارة الإسلامية هي التي علمت الحضارة الغربية كيف تأخذ بالعمل بعد أن كانت غارقة في التنظير والتفلسف والاختلافات حول قوانين العقل الانساني فأصبحت بعد أن كانت تحتقر العمل اليدوي الذي به تقوم التجربة غيروا نظرتهم ونقلوا النظرة العملية التجريبية إلى بلدانها، فجاءت الحضارة الإسلامية لتربط بين أسباب العلم بالعمل(١).

وهنالك سبيل آخر للتعليم وهو غير مباشر، وذلك عن طريق عمل المعلم بعلمه (=القدوة)، ومن ثم يصبح قدوة لغيره، وهذا ما تفتقده مجتمعاتنا المعاصرة، فقد نجده العالم المباشر النحرير ونفتقده كقدوة في التعليم غير المباشر، والعالم يلزمه أن يعمل بعلمه فـ"**العلماء ورثة الأنبياء**"(٢) والأنبياء كانوا عاملين أسوة لغيرهم، فقمة العدل أن

(١) د.يحيى هاشم فرغل: الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة، ط الأولى ١٩٨٦م، صـ١٥٣.

(٢) سنن الترمذي، كِتَاب الْعِلْمِ، فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد، رقم ٢٦٨٢.

يطبق الإنسان كلامه أو أقواله على نفسه أي يعمل بما يقول، فيكون هو أول الناس قدوة لغيره؛ لأن الله تعالى وبخ الذي يقولون ما لا يفعلون بقوله:﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾(الصف:٣)، وورد في سبب نزول هذه الآية أن بعض المؤمنين قالوا: يا رسول الله لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها فنزلت[(١)] فالله تعالى لم يقل لم تقولون ما لا تعملون؛ لأنه تعالى يعلم أن أقوالهم لن تتحول إلى أعمال بل تظل أفعالا دون أن تمس القلب، أي مجرد ادعاء ولو وقع منكم سيكون على سبيل الفعل المجرد عن النية لأن للعمل نية وقصد قبله، بل إن القرآن قد عبر عن سوء أفعالهم إذا أراد أحدهم أن يفعل رغم طلاوة القول في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ (البقرة:٢٠٤- ٢٠٥).فالعمل الصالح الذي تقوم عليه النهضة يتطلب الإيمان الصادق، وذلك يعني أن الإيمان جزء لا يتجزأ من النهضة والعمل هو ركيزة تلك النهضة ومنطلقها طالما أنه عمل صالح وذلك هو موعود الله للمؤمنين في قوله ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥]

التحول من الاعتقاد والإيمان إلى صورة عملية نهضوية يطبق فيها ويتحول فيها الإيمان النظري إلى عمل وتطبيق وتلك الصورة العملية تظهر لنا في حديث الرسول عن أبي

(١) تفسير القرطبي ج١٨:ص٧٨.

هريرة قال: قال رسول الله صلى الله علية وسلم: "الإيمان بضع وستون - أو سبعون - شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان"[١].أي أن من متطلبات الإيمان العمل النهضوي ولو كان برفع القمامة أو غيرها مما قد يصيب الإنسان بأذى حتى لو كان في صورة الأذى المعنوي وليس المادي فحسب، أي أنه لو وجد شيئا جارحا فعليه أن يميطه وينهى عنه وفقا لقواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولو بالقلب وذلك أضعف الإيمان.

ولا ينبغي أن يتأخر (العمل= التربية) عن التعليم بحجة الفراغ من التعلم. وهذا يستدعي للأذهان مقولة أبي حامد الغزالي، وهي إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل[٢] فنحن نجد العلم ولا نجد تطبيقه في صورة القدوة الحسنة، ومع ذلك الانفصال بينهما نتوه عن الواقع ونظل في النظريات فحسب، ومن هنا نحس بأن ما نتعلمه شيء، وفي الواقع المعيش شيء آخر. ومرجع ذلك –كما رأي الطهطاوي: أن العلم يجب أن لا يكون سبيلا للكسب الدنيوي، وإنما هو للبذل حتى يكون ذخرا لصاحبه في الآخرة، أي أن يكون العلم المبذول خالصا عن توجيهه لكسب شخصي أو متاجرة به أو يكون سبيلاً إلى الدنيا، وكذلك العمل يجب أن يراد به الآخرة لا الدنيا فحسب؛ ولذلك يجب على العالم أن يكون له عمل يكفيه مذلة السؤال، وإذا أراد أن يعلم فسيكون عمله مصاناً عن بيعه بدنيا يصيبها، فالعلم غاية ينتفع بها المرء بعد وفاته وليس وسيلة إلى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) وقال أيضا في رسالة أيها الولد: لو قرأ رجل ألف مسألة علمية علمها وتعلمها، ولم يعمل بها لا تفيده إلا بالعمل ومثاله...لا تكون مستعدا لرحمة الله إلا بالعمل، كما قال الله في التنزيل، تعالى وتقدس وأن ليس للإنسان إلا ما سعى"تقديم وتحقيق وفهرسة: إبراهيم نجيب حبيب، مطبعة أوفيست، ص٢٠ ،٢١.

الثراء في الدنيا[1] فلا ينبغي أن نفرق بين العالم والمسلم كما رأي – د.زكي نجيب محمود في كتابه رؤية إسلامية- قاصدا بذلك أن يجتمع في المسلم صفتا العلم والعمل، بحذف واو العطف بينهما، ولا غرو فالرسول كان يستعيذ من علم لا ينفع.

❁❁❁

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، جـ١ التمدن والحضارة والعمران، تحقيق د.محمد عمارة ، مكتبة الأسرة، ٢٠١٠م، صـ٣٥٤.

خاتمة البحث

لاح لنا من المباحث الثلاثة السابقة أن بذور الانفصال كانت منثورة في ظل الخلافات الإسلامية المتعاقبة، وذلك على الرغم من محاولات الاتصال والاتساق على مستوى الفرد بين أقواله وأفعاله وعلى مستوى الأمة بين النظر والتطبيق وبدا أثر ذلك في تجليات إبداعية تعكس الظاهرة، مثل كتاب: أدب الدنيا والدين للماوردي، واقتضاء العلم العمل للبغدادي، معيار العلم، ومعيار العمل للغزالي.

وإذا أطلنا النظر في الفلسفة الإسلامية ومجالاتها المختلفة سنجد صورة هذا الانفصال قد تجلت في علم الكلام وفي التصوف والأخلاق، وفي الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر على النحو الذي عرضنا له. وليس بمستغرب بعد ذلك أن نجد صدى تلك الإشكالية في حوار بين مفكرين أحدهما من المشرق والثاني من المغرب يتناولان تلك الإشكالية، ويرى الأول أن العمل مقدم على النظر، ويرى الثاني أولويه النظر على العمل؟[1] والحق أن الحل لا يكمن في السجال بينهما بل في الجمع واقتضاء أحدهما الآخر، وفإقامة التوازن بينهما هو شغل الإنسانية كلها ومطمح سعادتها، ولا يكون حل بغير علم وعمل، فهما كجناحي طائر لا يعلو إلا بهما معا في اتزان واتساق وتناغم تام، وغير ذلك يقعد به عن مهمته ووظيفته. وبناء عليه انتهي هذا البحث إلى عدد من النتائج التالية:

---

(١) سلسلة حورات لقرن جديد، النظر والعمل والمأزق الحضاري العربي والإسلامي الراهن: الأول هو د.حسن حنفي، والثاني وهو د.أبو يعرب المرزوقي، دار الفكر المعاصر، دمشق: ٢٠٠٤م.

- ✓ أن المتكلمين قد ركزوا جهودهم على النظر بل أوجبوه على المكلف وانتقلوا بعلم الكلام من كونه علما عمليا يعالج معضلات الواقع ومشكلات مع أصحاب الأديان الأخرى إلى علم نظري جدلي بين أصحاب الدين الواحد، وتناسوا الأعمال للحديث عن الأفعال وما يتولد عنها.
- ✓ أن بعض الصوفية ركزوا على أعمال القلوب وأهملوا أعمال الجوارح ومن هنا نشأت المعركة بين أصحاب الظاهر والباطن أو أهل الحقيقة وأهل الشريعة.
- ✓ أن الفلسفة انفصل فيها النظري عن العملي وأضحت تطلق فقط على النظري فقط في العصر الحديث بعد أن كانت الفلسفة أما للعلوم. وهذا يجرنا إلى النتجة النهائية وهي:
- ✓ أن الإسلامي الفكر الحديث فصل بين الدين والدنيا بين الماضي والحاضر بين الأنا والهو. بين العلم للدين والعمل للدنيا.

فهنالك إعراض عن التوازن والموسوعية والنظرة الشاملة والاستغراق التام في الجزئيات بعيد عن كلياتها، وذلك معوق خطير يعصف بكل رغبة في النهوض، التي يحسن بنا أن نبنيها على جناحي العلم والعمل

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- كتب السنة النبوية.
- المعاجم اللغوية.
- ابن أبي الدنيا، (أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي البغدادي):الوجل والتوثق بالعمل، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، الرياض، ط الأولى - ١٤١٨ - ١٩٩٧م.
- أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٣، مكتبة الأسرة ١٩٩٩م.
- أحمد محمود صبحي (د.): الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف، ط٢/١٩٨٣م.
- التوحيدي، أبو حيان :المقابسات: تحقيق: حسن السندوبي، مقابسة في بيان الفرق بين الفعل والعمل. طبعة مصر،١٩٢٩م.
- حامد طاهر(د.): الفلسفة الإسلامية ... مدخل وقضايا، دار الثقافة العربية ١٩٩١م.
- طه جابر العلواني (د.): إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/١٩٩١م.

  - التوحيد ومباديء المنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١/ ٢٠٠٧م.
- عبد العزيز التويجري(د.): مقال بجريدة الحياة السعودية بعنوان "الأمية في العالم الإسلامي قضية أمن قومي" نشر في ٦/٩/٢٠٠٨م، عدد:١٦٥٩١.

- الغزالي،أبوحامد: ميزان العمل، تحقيق: د.سليمان دنيا، دار المعارف، ط.الثانية، ٢٠٠٣م.

  – أيها الولد: تقديم وتحقيق وفهرسة: إبراهيم نجيب حبيب، مطبعة أوفيست.
- الفارابي، أبو نصر: فصول منتزعة، حققه وقدم له وعلق عليه فوزي متري النجار، بيروت، دار الشروق ١٩٧٢م.
- محمد الغزالي: – ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ٢٠٠١م.

  – النهوض الحقيقي لأمتنا، مقالة بمجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٠٨، ديسمبر ١٩٧٣م، ونشرت ضمن مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي، الوعي الإسلامي، ط٢/٢٠١٢م.
- محمد عابد الجابري(د.): المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣/٢٠٠٩م.
- المقدسي، (موفق الدين بن قدامة): تحريم النظر في كتب الكلام، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، عالم الكتب، الرياض، ط: الأولى – ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
- وحيد الدين خان: قضية البعث الإسلامي المنهج والشروط، دار الصحوة، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
- يحيى هاشم فرغل(د.): الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة: الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

✿✿✿